شهادات عائدين من حافة الموت!



نخيل نيوز ـ متابعة

تُروى بين الحين والآخر قصص لأشخاص مروا بتجارب قاسية حتى ظُنّ أنهم فارقوا الحياة، ثم عادوا ليحكوا انطباعات عجيبة تسبر أغوار الحدود الفاصلة بين الحياة والموت.

تثير هذه الروايات أسئلة عميقة حول الوعي والذاكرة وطبيعة ما يحدث للإنسان حين يقترب من النهاية. إنها تلامس مجهولا حيّر البشرية ولا يزال على مدى تاريخها.

ومن أبرز هذه القصص ما جرى للاعب رفع الأثقال الأمريكي فينسنت تولمان عام 2002، حين فقد وعيه إثر تناوله جرعة زائدة من مكمل غذائي لبناء الأجسام. توقف المسعفون عن محاولات الإنعاش، ووضعوا جثته في كيس مخصص للموتى، لكن أحدهم لاحظ، وهو في الطريق إلى المستشفى، نبضا ضعيفا، فاستأنف جهود الإنعاش.

بعد تعافيه، روى تولمان أنه خلال فترة "الموت السريري" كان يراقب جسده من الخارج، ويسمع أفكار الممرض داخل سيارة الإسعاف، ويرى كرة متوهجة ورجلا مسنا يرتدي ثيابا بيضاء.

روى الرجل أن عواقب أفعاله عُرضت عليه، ثم خُيّر بعد أن رأى كيف سيؤثر غيابه في عائلته، فقرر العودة إلى الحياة.

يشير علماء النفس إلى ما يُعرف بـ"تجربة الاقتراب من الموت"، وهي مجموعة معقدة من الأحاسيس والإدراكات تحدث عندما يكون الشخص على شفا الموت. اللافت أن أغلب هذه الروايات الشخصية تنطوي على عنصر يتعلق بإدراك غير مألوف، إذ يصف الناس تجارب يصعب تفسيرها من منظور فسيولوجي بحت.

وتُعدّ تجارب الخروج من الجسد شعورا بأن وعي المرء قد غادر جسده، وبدأ يراقب الأحداث من الخارج. تتشابه الانطباعات أحيانا، مثل رؤية ضوء في نهاية نفق، أو لقاء أحباء متوفين، أو استعراض متسارع لأحداث الحياة، إضافة إلى إدراك تفاصيل لم يكن بوسع المرء معرفتها مسبقا، مثل أفكار شخص آخر أثناء وجوده في وحدة العناية المركزة. لهذا تجد هذه القصص اهتماما خاصا، لا لأنها غريبة فحسب، بل لأنها تضعنا أمام سؤال عن حدود ما يستطيع الدماغ إنتاجه، وعن العلاقة بين الوعي والجسد.

وهناك تجربة أخرى جرت لرجل يدعى دانيون برينكلي في ولاية كارولينا الجنوبية عام 1975. فيما كان يتحدث عبر الهاتف أثناء عاصفة رعدية، أصيب بصاعقة انتقلت عبر خط الهاتف. توقف قلبه عن النبض، ثم عادت إليه الحياة في المشرحة بعد مرور ثمان وعشرين دقيقة. ألّف لاحقا كتابا بعنوان "أنقذني النور"، تحدث فيه بالتفصيل عن تجربة الاقتراب من الموت

وما رافقها من تحول روحي عميق. المثير للدهشة أن هذا الرجل نفسه، بحسب تقارير، مرّ بتجربة ثانية للاقتراب من الموت بعد أربعة عشر عاما.

الجدير بالذكر أن العلماء، على الرغم من أنهم يحددون آليات فسيولوجية تلعب دورا في مثل هذه الحالات، مثل نقص الأكسجين، وإفراز مواد كيميائية عصبية، وحالة الانفصال عن الواقع، يرون أن هذه التجارب تبدو حقيقية لا لبس فيها بالنسبة لمن مر بها، كما أنها تنطوي على كثير من المضاعفات النفسية.

على أي حال، لا يوجد إجماع في الأوساط الطبية والعلمية حول هذه الظاهرة المحيرة، إذ يميل بعض الباحثين إلى اعتبارها ظاهرة عصبية نفسية، مفترضين أن الدماغ قد يولّد صورا واضحة ومنظمة نتيجة لتدفق مفاجئ للناقلات العصبية في ظل ظروف نقص الأكسجين. في المقابل، يبحث آخرون في هذه القصص عن أدلة وشواهد لا تتوافق مع النظرة المادية البحتة للعالم.

ويعتقد بعض الخبراء أن كل قصة من هذا القبيل لا تُعدّ دليلا قاطعا على وجود ظواهر خارقة للطبيعة، بقدر ما تمثل مناسبة للتأمل بعمق أكبر في طبيعة الوعي وحدود الحياة.

غالبا ما يرصد الأشخاص، بعد تجربة الاقتراب من الموت، تغيرا ملحوظا في منظومة قيمهم ودوافعهم. قد يتخلص بعضهم من الخوف من الموت، ويكتسبون تقديرا أعمق للحياة، ويصبحون أكثر تعاطفا وتسامحا، مع رغبة أقوى في مساعدة الآخرين. في الوقت نفسه، غالبا ما تتراجع أهمية الجوانب المادية والنجاح لمجرد النجاح.

هكذا تبقى تجارب الاقتراب من الموت مجالا مفتوحا للبحث والتأمل، يلتقي فيه العلم بالتجربة الإنسانية، ويظل السؤال قائما: هل هي مجرد نتاج كيميائي للدماغ، أم نافذة على حقيقة لا يطالها الإدراك البشري؟